تاريخ فنون الحديث *)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل من السنة تبيانا للكتاب. ونورا يهتدي به أولوا الالباب، وبعث اليها من الحفاظ المتقنين، والرواة الصادقين، والنقدة البصيرين، من قام بصادق خدمتها، وحفظ عليها جلال حرمتها، ونفى عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، (١) وصانها من أفك المفترين، ودغل الدجالين، فحفظت على مر العصور، من يد الدثور، وصينت — بعناية الله — من أرباب الفجور. فلله مزيد الحمد والمنة على ما حفظ من معالم دينه وسبل رشاده، وعلى صفيه وخليله محمد بن عبد الله صلواته وسلامه، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

« وبعد » فان من لا علم له بالكتاب والسنة لا حظ له من الملة الحنيفية، والشرعة المحمدية، وليس له من نور الهداية ومصباح النبوة ما يهتدي به في دياجير الشبهات، وظلمات الترهات؛ وان صدره لفقل من برد اليقين، وعقله بمعزل من اصابة الحق المبين، وقلبه خلو من واعظ الايمان، وخشية الديان. فالخير كل الخير في اتباع الكتاب والسنة واقتفاء هديهما، والاغتراف من بحرهما الواسع بوجودهما السابغ، ولا شيء أهدى للنفوس وأجلب لسعادتها؛ وارجى لطهارتها، من تفهم هذين المصدرين والعكوف على درسهما، وتدبر معانيهما، والنفوذ الى مغزاهما. فهناك طهارة القلب، وصفاء العقل، وكمال النفس

فكان خليقا بالعلماء ورواد الدين أن يجعلوا مقصدهم الاسمى وغايتهم القصوى معرفة هذين الاصلين، والاستظلال بظل هاتين الدوحتين، والاحتماء بحماهما وابتغاء الهداية من سبيلهما. ولكن — وا أسفاه — صرفوا عنهما العناية وولوا وجوههم نحو الفروع وما اليها، وتحكموا بها في كتاب الله وسنة رسوله (ص) فآثروا الفروع

*) رسالة صنفها الشيخ عبد العزيز المولي الطالب في السنة النهائية بمدرسة القضاء الشرعي

١) روى البيهقي في المدخل من حديث ابراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا قال قال رسول الله « ص » يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين

على الاصول، وقدموا آراء الرجال على قول الله وقول الرسول. وبذلك الاعراض لمقام الكتاب والسنة؛ وتغالى في وضع الآراء مواضع النصوص، وانه لخطأ — لو يعلمون — عظيم تنكره أصولهم، وتأباه عليهم — لو أنصفوا — عقولهم

ومن عجيب أمرهم أن يعدوا من كبار المفسرين من درس مثل تفسير الجلالين أو النسفي دون أن تكون له ملكة فهم في القرآن وذوق يدرك به سر فصاحته وكمال اقتدار على تطبيقه على سير الناس ومعاملاتهم. وأعجب من ذلك أن يعدوا بخاري زمانه ومسلم أوانه من مر على صحيح البخاري مر السحاب دون أن يطلق لنفسه العنان في تفهم الاحاديث واستنباط الاحكام ومقارنة ذلك بأفهام المتقدمين وما استنبطوه منها. وان صحيح البخاري من كتب الصحاح والمسانيد والاجزاء التي يكاد يحطمها العد ولا يضبطها الحساب؛ وان من المضحكات المبكيات أن تسأل كثيراً من العلماء عن اسماء الكتب الستة فلا يحير جواباً كأن ذلك ليس لديه من الدين في ورد ولا صدر ولا قبيل أو دبير. فلا حول ولا قوة الا بالله

تنكرت معالم الدين، وطبق الجهل على المنتسبين اليه، وسادت الفروع وعبدت لها الاصول. وأنكر على المؤثر لها، المقتفي هديها؛ فزال جلال الدين من النفوس وكاد يرحل من دور القضاء، ويهاجر من أرض المعاملات

فكل ذلك دعاني لان أجعل رسالتي التي أقدمها لمدرسة القضاء في السنة الختامية، في تاريخ فنون الحديث — والكشف عما طرأ عليها من جمع وتصنيف وترتيب وتهذيب وشرح وتبيين حتى تتمثل لك — أيها القارئ الكريم — صورة واضحة ترى فيها كتب السنة ماثلة، وتلمح في ثناياها تلك الخدمات الجليلة التي أداها للسنة سلفنا الصالح، وتبصر في أساريرها رفيع مقام السنة وناصع بياضها وجليل أمرها. واني وان لم أسبق الى هذا النوع من الكتابة — حسب ما أعلم — ولم يمهد أحد قبلي صعابه فان أملي في الله عظيم ورجائي في واسع فضله كبير ان يسدد لي خطاي، ويوفقني لمسعاي، ويمدني بروح من عنده يهديني بها قصد السبيل، انه نعم المولى ونعم النصير

معنى تاريخ السنة

السنة في اللغة الطريقة المسلوكة من سننت الشيء بالمسن اذا أمررته عليه

حتى يؤثر فيه سنا أي طريقاً . وهي اذا أطلقت تنصرف الى الطريقة المحمودة وقد تستعمل في غيرها مقيدة كقول النبي (ص) «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة» رواه مسلم وتطلق في عرف الشرعيين على قول النبي (ص) وأفعاله وتقريراته — عدم انكاره لامر رآه أو بلغه من يكون منقاداً للشرع فهي مرادفة للحديث . وأعني بتاريخها الادوار التي تقلبت فيها من لدن صدورها عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم الى أن وصلت الينا من حفظ في الصدور ، وتدوين لها في الصحف ، وجمع لمنثورها وتهذيب لكتبها ونفي لما اندس فيها ، واستنباط من عيونها ، وتأليف بين كتبها ، وشرح لغامضها ونقد لرواتها — الى غير ذلك مما يعرفه القائمون على خدمتها والعاملون ، على نشر رايتها

أدوار تاريخ السنة

حفظها في الصدور . تدوينها مختلطة بالفتاوى . افرادها بالتدوين تجريد الصحيح . تهذيبها بالترتيب والجمع والشرح . فنون الحديث المهمة وتاريخ كل علم وأحسن المصنفات فيه .

وسنعقب ذلك بخاتمة فيها مسائل قيمة

مكانة السنة من الكتاب

قبل أن نشرع في موضوعنا نقدم لك بين يديه فصلا نبين فيه مكان السنة من الكتاب ومنزلتها منه حتى تتجلى لك مكانة الموضوع الذي نحن بصدده فنقول وبالله توفيقنا وعليه اعتمادنا

ان للسنة عملين (١) تبيين الكتاب (٢) والاستقلال بتشريع الاحكام . أما الاول فلقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر «القرآن» لتبين للناس ما نزل اليهم) فلا سبيل الى العمل بجل الشرائع التي تضمنها الكتاب الا ببيان من المعصوم يفصل مجملها ويوضح مشكلها ويعين محتملها ويقيد مطلقها . وكيف تراك مصليا اذا وقفت الى ما نطق به الكتاب فحسب ولم تعرج على السنة فتتعرف أوقاتها وعدد ركعاتها وسجداتها وما يقيمها أو يبطلها الى سائر أحكامها وكثيراً ما تاعها